مرض أيوب وعلاج الحمى

للدكتور محمد وصفى

كثر كلام الكتاب المسلمين وغير المسلمين عن مرض رسول الله أيوب ، وأكثر ما رواه المسلمون فى وصف هذا المرض لا يستند على مصدر موثوق به ، ولم يصل إلى علمنا بحث حاول كاتبه أن يستخلص من كتاب الله شيئاً عما كتب الله عن حالة أيوب .

إن الله تعالى يقول : « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين (٢ : ٨٣ و ٨٤) .

ولفظ الضر كلمة عامة تشمل المرض وغيره من نائبات الزمن كما جاء فى قوله تعالى : « وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا » . (١٠ : ٢١) .

والذى يدعونا إلى القول بأن مما كشفه الله عن أيوب مرض من الأمراض هو قوله جل شأنه : « اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب » (٣٨ : ٤٢) فذكر المغتسل البارد مع الشراب يبين أن الشراب المذكور فى الآية الكريمة مقصود به دواء شافٍ ، وأنه جاء بمثل لفظ الشراب الذى جاء فى قوله تعالى : ... « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » (١٦ : ٦٩) ونعت الماء بالبرودة يوحى بأن المراد استعمال الماء البارد كذلك بقصد العلاج .

ولما كان أيوب فى حاجة إلى استعمال دواء من الباطن على صورة شراب ودواء من الظاهر ممثلا فى الماء البارد ، ولما كان الماء البارد لا يقصد لذاته إلا فى حالات الحمى ، تأكد لدينا أن أيوب لابد وأنه كان مصابا بمرض ما مصحوب بارتفاع فى درجة الحرارة .

ويمكننا أن ننظر إلى الآيات الكريمة الخاصة بذكر حالة أيوب من زاوية أخرى ، فإن ما ذكره الله من ابتعاد أهل أيوب عنه ، لم تأت فيه أية إشارة إلى أن هذا الابتعاد كان بسبب اختلاف فى العقيدة أو خروج على رسالة أيوب ، أو نفور من دعوته ، ولذلك ترجح لدينا أن الحمى التى انتابته كانت هى السبب فى مجانبتهم إياه .

ولا تكون الحمى سبباً فى ابتعاد الأهل عن مريضهم إلا إذا كانت هذه الحمى شديدة العدوى ، خطيرة الأعراض .

ويزيد يقيننا أن أيوب كان مصابا بحمى معدية ، أن الله ما آتاه أهله إلا بعد أن شفاه مما به ، ولم يردهم إليه قبل أن يهديه إلى أسباب العلاج والبرء : اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب (٣٨ : ٤٢ و ٤٣) .

وهكذا ترى قصة أيوب تهدف ، فيما تهدف إليه ، إلى توجيه طبى عظيم الشأن بعيد الأثر بالغ الحكمة ، فهى تقرر أن هنالك أمراضا معدية يجب الاحتراس منها ، وتوجب اعتزال المريض ، وابتعاد غير المحصنين ضد هذه الأمراض عنه ، مهما كانت صلة القرابة بينهم وبين المصاب ، وذلك حتى لا تنتشر العدوى وحتى لا يصابون بنفس هذه الأمراض ، وهذا هو قانون الحجر الصحى الذى لم يهتد البشر إليه ولم تدن به أوروبا إلا بعد نزول هذه الآيات الكريمة بنحو ٧٧٦ سنة حين نفذت ميلانو والبندقية بعض قوانين صارمة للحجر الصحى ضد الطاعون التى اجتاح أوروبا فى القرن الرابع عشر الميلادى ، هذه القوانين التى نفحتها بعد ذلك جمهورية راجوسا وهذبتها فأنشأت المأوى بعيدا عن المدينة ليعزل فيها القادمون والمشتبه فيهم لمدة ثلاثين يوماً ، ولذلك سميت هذه المدة Trentina ترنتينا ، ثم زيدت المدة بعد ذلك فصارت أربعين يوما وسميت لذلك كرنتينا Quarantina وهو اللفظ التى اشتقت منه حكمة (كرنتينة) ، وإن هنالك فى كتاب الله آية تحمل هذا المعنى لقانون عام للوقاية من الأمراض وغيرها وهى قوله تعالى : ... « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »... (٢ : ١٩٥) .

وتبين لنا الآية الكريمة (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب)

ضرورة الالتجاء إلى العلاج الباطنى فى الحميات على وجه عام مع عدم إغفال استعمال الماء البارد لتخفيف وطأة الحمى إذا لزم الأمر .

وأما قوله تعالى : « واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب (٣٨ : ١١) فلا يفهم منه أن الشيطان أصاب أيوب بمرض مما كما جاء فى كتاب اليهود من قولهم : فخرج الشيطان من حضرة الرب وضرب أيوب بقرح ردىء من باطن قدمه إلى هامته (سفر أيوب ٧١٢) فان وظيفة الشيطان تنحصر فيما يبذله من توجيهات مضللة ضد رسالة النبيين ، وفى تشكيك الناس فيما أنزله أنزله الله تعالى على رسله من هدى ، وفى تزيين سبل الغواية لبنى آدم على وجه عام ، فالله تعالى يقول : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال : أأسجد لمن خلقت طينا ، قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لاحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً . واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا (١٧ : ٦١ — ٦٥) .

وفعلا لم يستطع الشيطان بمحاولاته مع أيوب أن يشككه فى رحمة الله ، ولم يكن فى قدرته أن يستغل ضعفه الجسمانى فى ضره أثناء وقوعه فى أسر الحمى أن يهذى بما يغضب الله .

وما حاوله الشيطان مع أيوب ففشل فيه هو النصب والعذاب الذى لاقاه أيوب من الشيطان ، وليس شىء غيره ، ولطالما أزعج الواحد منا جاهل ثرثار ، فما بالك بإبليس نفسه ، وشدة جهالته وعظيم ثرثرته ، واستماتته فى أداء وظيفته .

أراد الله تعالى بذكر قصة الشيطان مع أيوب أن يبين صبر أوليائه ، وأن يثبت أن الشيطان لا يستطيع أن يتسيطر على المخلصين من عباده : إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون (١٦ : ٩٩ و ١٠٠) .

فقوله تعالى (اركض برجلك) كلام مستأنف لا يعنى أن النصب والعذاب الذى لاقاه أيوب من الشيطان هو عين الضر الذى أزاله الله عن أيوب بالعلاج ،

فالضر يصيب الله به من يشاء من عباده امتحانا ، ولم يقل الله أن الشيطان أصاب أيوب بالضر ، وشتان بين الضر ، وبين النصب والعذاب التى تحمله أيوب من الشيطان من غير أن يكون له منه فى نفسه أى أثر فعال .

وهنالك فى قصة أيوب درس أخلاقى عظيم ، فإن أيوب (نادى ربه أنى مسنى الضر) ولم ينسب مس الضر إياه إلى الله سبحانه وتعالى تأدبا مع ربه ، وقد فعل فى ذلك ما فعله إبراهيم من قبله حيث قال : « فإنهم عدو لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين (٢٦ : ٧٧ — ٨٠) فنسب المرض إلى نفسه تأدبا مع خالقه ومهديه ومطعمه ومسقيه والذى يميته ثم يحييه والذى يطمع أن يغفر له خطيئته يوم الدين .

من وصايا رسول الله

قال أبو ذر الغفارى : قلت يا رسول الله أوصنى ، فقال . أوصيك بتقوى الله ، فإنها رأس الأمر كله ، قلت له : يا رسول الله زدنى ، قال : عليك بتلاوة القرآن وذكر الله فإنه نور لك فى الأرض وذكر لك فى فى السماء ، قلت : يا رسول الله زدنى ، قال : إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ، ويذهب بنور الوجه ، قلت : يا رسول الله زدنى ، قال : قل الحق وإن كان مراً ، قلت : يا رسول الله زدنى ، قال : لا تخف فى الله لومة لائم ، قلت : يا رسول الله زدنى ، قال : عليك بطول الصمت فإنه مطردة للشيطان ، وعون لك على أمر دينك ، قلت : يا رسول الله زدنى ، قال : عليك بالجهاد فإنه رهبانية أمتى ، قلت : يا رسول الله زدنى ، قال : انظر إلى من هو تحتك . ولا تنظر إلى من هو فوقك فإنه أجدر ألا تزدرى نعمة الله عليك : » .